منهج البحث العلمي في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور حسين آتاي

واقع المسلمين تجاه القرآن الكريم

في عام 1985 ذهبت الى ألمانيا الغربية رئيسا على وفد من وزارة المعارف التركية لعقد معاهدة ثقافية مع الألمان في الدروس الدينية الإسلامية في مدارس ألمانيا الغربية في ايالة (مقاطعة) و ستفاليا الشمالية و اثناء ذلك زرنا بعض الصفوف الدينية الإسلامية في مدرسة إبتدائية كان المدرس تركيا .

و أعجبني منهجه في تدريس الدين . و عندما دخل المدرس الصف ، أخذ السجادة و بسطها على الأرض . ثم فتح المسجلة (آلة التسجيل) التي أخذت بدورها تؤذن للصلاة . ثم سأل المدرس التلاميذ : فأجابوا بأنه إعلان لوقت الصلاة . ثم سألهم ما هي الصلاة ؟ فأجابوا بأنها عبادة مفروضة على المسلمين . ثم سألهم : من قال إنها عبادة مفروضة ؟ فأجابوا بأن الله تعالى قال ذلك . ثم سألهم : من أين تعرفون أن الله تعالى قال ذلك ؟ فأجابوا بأنها مكتوبة في القرآن الكريم . ثم سألهم : ماهو القرآن الكريم ؟ فأجابوا بأنه كلام الله تعالى .

ثم قال المدرس ، حينئذ ، إذا أردنا أن نعرف ماذا يقول الله تعالى و ماذا يطلب منا أن نفعل ، فعلينا أن نرجع الى القرآن الكريم لنفهم كلام الله و خطابه لنا . فأجاب التلاميذ بالإيجاب .

و قد أعجبني هذا المنهج الذي كان فيه تفصيل واف لخصته لأجعله مقدمة لكلامي و بحثي هذا حتى يعرف الصغار و الكبار ، يعتادوا الرجوع الى القرآن الكريم في وقت الحاجة و في كل مناسبة ، إذا أرادو أن يعرفوا الحكم عند الله تعالى . و باللأسف الشديد كم ابتعدنا عن هذا المنهج العلمي الصحيح ! .

و أحب أن أسأل نفسي مع الآخرين من المسلمين هل نرجع إلى القرآن الكريم لنتفهمه و نتفقه فيه فيما نعلم لوضع معارفنا و ثقافتنا الموروثة و المتقلدة على ميزان القرآن الكريم من جديد ، و فيما لانعلم أن نستنبط منه أحكاما لمشاكلنا الحديثة ؟ .

و يمكن لي الإجابة عن هذا السؤال بناء على تجربتي الشخصية لمدة خمس و ثلاثين سنة . بأن المسلمين لا يقرأون القرآن للفهم و الإتباع لأنه يكفيهم ما فهمه السابقون الأولون و إنما يقرأونه ، و يسمعونه لتلتذ آذانهم بصوت القارئ و يخرون صامتين ساكتين و من ثم يرجعون إلى ما كانوا عليه و كأنهم لم يسمعوا شيئا . و هذا هو حال المسلمين دون استثناء من شعب

لآخر . و إن كان من يدعو إلى الرجوع الى القرآن الكريم و لكن هل يرجعون بفكرة جديدة لفهم جديدة أم لا ؟ .

فإن القرآن الكريم أصلح المؤمنين الأولين فلماذا لا يصلح المؤمنين الحاضرين ؟

<u>الإجتهاد هو الرجوع إلى القرآن</u>

عندما كنت طالبا في كلية الشريعة في بغداد كنت أتردد إلى العلماء و المشايخ أدرس عندهم علوما و كتبا إضافية بعيدة عن منهج الكلية أو تكملة للكتاب المقرر في منهج الكلية . و أذكر أنني دخلت مرة على الشيخ محمد قزلجي أمام جامع البشر الحافي رحمه الله ، و كان عنده رجل لم أعرفه . و بعد ما خرج الرجل قلت للشيخ أن العلماء لا يقرأون القرآن . و أجابني الشيخ بقوله : " صحيح " ! فإن هذا الرجل الذي خرج الآن و هو من كبار العلماء . " فسألته : هل تقرأ القرآن الكريم ... " الى هنا قول الشيخ .

و هناك أمثلة أخرى كثيرة و لا نطيل الكلام فيها . و في الحقيقة ، أن مثل هذه الوقائع و التجارب توضح و تبين لنا الذهنية الحاكمة و المرجودة بين العلماء ، الذين ورثنا علومهم و ذهنيتهم و هم جيل أبنائنا و أجدادنا القريبين و البعيدين . و أكثر من يقرأ القرآن هم العوام. و أما إذا كان من العلماء من يقرأ القرآن الكريم ، فإنما يقرؤه مثل العوام حيث لا يقفون قليلا ليفهموا معناه و كما أن العوام يقرأونه للعبادة ، و التعبد دون فهم معناه يعني لتلفظ كلماته بلا تدبر ما يقول . و كذلك بعض العلماء ، كأنه قد شرط أن القراءة إذا كانت من دون فهم كانت عبادة ، إذا فهمت خرجت من أن تكون القراءة عبادة ؟ .

و لذلك فرقوا بين قراءة القرآن بنية الدعاء ، و بين قراءته بنية العبادة و لكن لم يبينوا في ابتهما شرط الفهم .

<u>أصناف المسلمين المثقفين</u>

إننا نرى المثقفين من المسلمين من شعوب مختلفة ينقسمو ن الى أصناف :

الصنف الأول : المثقفون بثقافة علمية معاصرة مستندة على تجربة و أختبار يحاول البعض و لو أحيانا الرجوع الى القرآن الكريم و يربطوا معلوماتهم في اختصاصاتهم بالقرآن ليفهموه و ليفسروه حسب ما وصلت إليه معرفتهم الحديثه . و كثيرا ما ينفعون الاسلام و المسلمين بمحاولتهم هذه ، و يظهرون معجزة القرآن العلمية . و لهم حرية التفكير و التفسير و لا يتأثرون بأفكار مسبقة ولهم مجال واسع ، و يؤدون واجبهم الديني بحسن النية . لأنه ليس لهم تقاليد و أعراف و عنعنات موروثة علمية في اختصاصاتهم ولهم الحرية في ذلك .

الصنف الثاني : بثقافة إسلامية تقليدية أو بتعبير آخر العلوم الإسلامية المدونة طوال

العصور الماضية . و عندما يقرأون القرآن أو يراجعونه ، يفهمونه و يفسرونه على ضـــوء آراء ، و أفكار العلماء و الأئمة السابقين في التفاسير أو بين الكتب الفقهية و الكلامية و الأخلاقيـة و لا يحاولون أن يفهموا القرآن و يفسروه بصورة أخرى . و ليس معنى ذلك أنهم لا يستطيعون و لكن يرون أنفسهم دون المرتبة في الفهم ممن سبقهم . و لا ندري هل يستطيعون ذلك أم لا ؟ لأننا لم نرهم قد استعملوا قدرتهم العلمية و مقدرتهم الذهنية حتى نحكم بأنهم لم يستطيعوا . و ليس كل من يحاول ذلك ينال بغيته . و لكن المهم إجازة و قبول مشروعية المحـــاولة . لأن جوازها سيعطي المجال لمن يستطيع أن يفهم القرآن بصورة أخرى ، و على أقل تقدير، فإن الذي يحاول ذلك يخرج عن ربقة التقليد ، و إن لم يأت بجديد . مثلا فإن العلماء السابقين لم يكتب لهم النجاح في حل مشكلة التجارة في مسألة الربا ، و الآن لا يرضى المسلمون بحلول موجـودة في الكتب الفقهية المستندة على المواضعة ، و مع ذلك لا يسعون لإيجاد حل لها بدعا من زمان الرسول في تحقيق الأوضاع الإقتصادية و التجارية و الإجتماعية و الدينية تحت أضواء العلــوم الحديثة تجاه المشكلات و الشروط التغيرة . حرة طليقة خارجة عن كتب الفقه .

الفصل الثالث : من العلماء ، و الأساتذة الذين اطلعوا على الثقافة الحديثة المعاصرة قـــد عرفوا مداخلها و فهموا مضامينها . و كذلك قد أحاطوا علما بالثقافة الإسلامية الموروثـــة و عرفوا مقاصد الشريعة و ادركوا مغزاها و جمعوا بين الثقافتين يسعون حثيثا لإدخال الديـــن الإسلامي في الحياة اليومية بالدعوة الملحة الجادة إلى الإجتهاد و إبداع الآراء في حل المسائــل و المشاكل في فنون الحياة الفردية و الجماعية و الدولية و يدعون إلى القيام بدور الأئمة العظام و المجتهدين الكرام في الصدر الأول للإسلام و هؤلاء قلة قلائل و لا صوت لهم و لا تأثير .

الرجوع إلى القرآن مشروط بحرية الرأي و الفكر :

و ذلك لا يتم و لا يتسنى لأي عالم و مفكر إلا بالرجوع إلى مصدرين أصليين للديـــــن الإسلامي مباشرة و يشربون من منهلهما و من ينبوعهما الماء العذب الفرات دون مروره من خلال الأنابيب الفكرية و اللسانية و بلا عبور من مراحل العقول البشرية طوال الأربعة عشر قرنا .

بدأت دعوة الرجوع إلى القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة منذ عصرين في مختلف الأقطار الإسلامية . إلا أنه لم يكتب النجاح التام للدعاة لأسباب معروفة أو غير معروفة إلا في مجالات ضيقة . و لذلك ترى الناس بعد العصرين كأنهم في البداية . و ندعو نحن كذلك إلى الرجوع إلى القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة و لكن بدعوة أكثر حزما و أشد عزما مما سبق و بدعـــوة علمية و عملية معا واسعة النطاق و ليست نظرية فحسب .

و هذه الدعوة تتضمن ترك التعصب للرأي و للمذهب و التمسك بمبدأ البحث الحر المستقل عن

الآراء المسبقة . لأن الرجوع إلى القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة يتضمن لنا مبدأين مهمين :

أولا : يعطينا حرية التفكير و يوسع زاوية الفهم و الإدراك للدين الإسلامي بما فيهما من مبادئ عامة و شاملة للكون الجمادي و المجتمعات البشرية الحية .

ثانيا : يزودنا بموازين و معايير لتقويم الثقافتين الإسلامية و المعاصرة على السواء . و نفهم بها مدى صحة الثقافة الإسلامية و إصابة استنادها إلى المصدرين الأصليين و درجة ابتعادها و زاوية انحرافها عنها . و كذلك نحاكم الثقافة المعاصرة بوضعها على القسطاس الإسلامي و نـــدرك أخطاءها و مفاسدها من صوابها .

فإن الإبداع في الفنون و الصناعات و ابتكار الأفكار الجديدة لا يتحقق إلا باحتكاك العقـول و تبادل الآراء المختلفة و المعارضة . كما أنه لا ميلاد لمولود إذا لم يكن هناك تلقيح و هو يكـون بين الجنسين المختلفين .

يجب على المسلمين أن يفكروا في تقويم ثقافتهم الموروثة و يميزوا بين ما هو صحيح فيها و مـا هو خاطئ من دون تحيز . و كذلك ينبغي عليهم أن يحاكموا الثقافة المعاصرة و يبينوا ما هـو صالح للأخذ منها و بين ما هو فاسد للرفض دون الإدانة ، بغير بحث و نظر صحيح .

ثم يأخذون ما هو صحيح من الثقافة الإسلامية و يصححون بها ما هو فاسد في الثقافة المعاصرة. و يأخذون ما هو صالح في الثقافة المعاصرة للأخذ و يصلحون بها ما هو خطأ في الثقافة الإسلامية. و بهذه الصورة يتم التزاوج و يبدأ الميلاد و الإنتاج الصحيح و الصالح و السليم .

و من دون معرفة تامة للثقافة الإسلامية و من دون إحاطة بالثقافة المعاصرة و من دون التمييـز فيهما بين الصالح و الطالح و بين الحسن و السيئ لا يكون هناك ازدواج بين الأصحاء ، و لا مولـود سليم البنية و الروح معا . و هذه هي سنة الله الكونية و الإجتماعية .

الخطأ البارز منذ العصرين هو أن المسلمين اتخذوا كل ما هو في ماضيهم من الثقافات و المعارف صحيحة و لم يقبلوا النقاش فيها و لم يتفكروا في احتمال الخطأ فيها و دافعوا عنها ككـــل دون التمييز بين الصواب و الخطأ . و لم يروا الحاجة إلى التقويم من جديد ، و لذلك اصطدمت ثقافـــة الإسلام الخاطئة بثقافة المعاصرة الصحيحة و اضطرب الشرق و الغرب معا . لأن الغرب يحـــارب الثقافة الإسلامية الخاطئة على أنها ثقافة إسلامية صحيحة و يحارب الشرق الثقافة الغربيـــة دون التميز بين صحيحها و سقيمها .و لكن هذاأمام الهجوم و الإعتراضات الواردة من الأعداء ، خارجـا و داخلا . إلا أنه إذا جاءوا يتكلمون فيها بينهم ، تراهم كل حزب بما لديهم فرحون . ينقض كل طرف ما يقوله الأخرون دون قيد و شرط لأنهم يتعصبون للرأى و المذهب . يقول الأول للآخر : هم ليســـوا على شيئ و الأخر يعيد نفس القول و يقول : هم ليسوا على شيئ . و هم يقرأون الكتب و لا يقرأون

القرآن الكريم لتجديد المعرفة و الإيمان لتوحيد الله الذي يشمل توحيد كل عمل و غاية في الحياة ، بحيث يكون كل عمل و غاية في الحياة اليومية ليل نهار متوجها الى الله الواحد الأحد .

اتخاذ هي الدعوة الى الرجوع الى القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة الصحيحة سندا و متنا ، وظيفة دينية أصلية مهمة منذ سنوات لاقتناعي و اعتقادي - ليس اعتقادا نقليا - بالفعل و المشاهدة و التجربة الشخصية على أن الذين دعوا إلى الرجوع إلى القرآن لم يرجعوا اليه ولذلك لم يتحقق الإصلاح في الأمور الإجتماعية و السياسية و الحقوقية (الفقهية) و غيرها .

وكثيرا ما نذكر القرآن الكريم لأنه أصل الأساس الأول و الثاني هي السنة و هي داخلة ضمن القرآن الكريم . و الذين يسمون أنفسهم أنصار السنة - و هناك فرق بينهم و بين أهل الحديث - الأولون لا يذهبون إلى القرآن و إنما يقفون في السنة للمسائل التي يتناولونها للبحث و الحكم . و يصبح القرآن مجانبا من قبلهم ، هذا أولا . و الأمر الثاني عندهم يأخذون صحة الحديث سندا و لا ينظرون إلى صحة المعنى و المتن إلا نادرا ، و ذلك أيضا بسبب موجود في ضعف السند . و ثالثا يتمسكون بالمعنى اللغوي و اللفظي للحديث و يعتصمون به ولا يتناولون الحديث كفقيه .

و على هذا لا يجوز و لا ينبغي لهم أن يصدروا حكما . و إنما لهم حق تصحيح السند فقط و أما تصحيح الحديث متنا و معنى فيرجع إلى الفقهاء . و الفقيه عليه أن يسأل أهل الحديث عن سند الحديث ثم يشرع في فقهه و فهمه . و هذا هو إعطاء الحق لأصحاب الإختصاصات و تسليمه لهم .

و تحقق عندي شيئ من الرجوع إلى القرآن الكريم و السنة الصحيحة سندا و متنا :

أ - في حياتي العلمية للدراسة العالية تدرسا و تدريسا أكثر من أربعين سنة شاهدت أن في القرآن حلولا لبعض المشاكل المعضلة من اجتماعية و سياسية و حقوقية (فقهية) و غيرها بصورة صريحة و سهلة المعنى .

و على ذلك ينبغي على الفقهاء المحدثين و العلماء المفكرين أن يرجعوا إلى القرآن حتى في المسائل المقتولة بحثا في كتب الفقه المدونة من المذاهب المختلفة ، بحيث كأنهم لم يدرسوها - و ينظرون الى تلك المسائل من جديد بنظرة قرآنية خالصة و نظرة واقعية حية موجودة في المجتمع . و سيجدون الحل بايسر طريقة .

ب - عندما بدأت العلوم المختلفة تتطور عند المسلمين و تتفرع و تتخصص ، أخذ كل علم من الأيات و الأحاديث ما وجدهما مناسبا و متعلقا بالموضوع و هكذا توزعت الأيات و الأحاديث بين العلوم المختلفة . أصبحت آية في الفقه وآية في الأخلاق وآية في السياسة

و آية في الإجتماع و آية في العقيدة . و وقع هذا في الحديث أيضا . و أصبح كل من ينظـــر إلى القرآن ينظر تحت تلك العناوين أو بزاوية ذلك العلم أو العلوم .

و لكن الحق ينبغي أن يقال إذا رجع الفقيه إلى القرآن الكريم نسب ما قرأه من الفقه - مؤقتا - و ينظر فيه قبل توزيعه على العلوم المختلفة سيجد آية أو حديث يحل مشكلته الفقهية أو السياسية و الإجتماعية أو غيرها بسهولة و سيندم لماذا لم يقرأ القرآن سابقا بهذا التنهف و النية إلا أن تلـك الآية أو الحديث قد وضعت في مكان آخر في علم آخر مثلا في الاخلاق و رغم كون ذلك صوابا فـي محله و لكن ينبغي أن يوضع الآن في الفقه لحل مشكلة فقهية و هكذا العمل في كل مسألة .

كثير من الناس في الأقطار الاسلامية يتكلمون و كأنهم يصيبون في القول و تشخيص الأمراض الاجتماعية و غيرها و لكن قليل و قليل جدا من يقوم بالعمل . و يقولون ما لا يفعلون و هذا أيضا من مخالفة القرآن . يعرفون الآية في القرآن و لكن لاعن إيمان متغلغل في مشاعرهم من الصغـــر و هناك أساليب متنوعة لتحريض الناس على إكثار القول دون العمل لإصلاح المسلمين عمدا و بغير عمد قصدا أو بغير قصد . و الغزو الفكري يدعم هذا الوضع بصورة لاهثة جدا .

و لذلك هناك حاجة ملموسة و محسوسة إلى إيجاد ذاتية إسلامية و شخصية مسلمة تقوم بتقدير روحات الحضارات الإنسانية و تقويم الثقافات و المعارف البشرية . و ذلك يمكن إذا ربي الناس تربية إسلامية مبنية على قوانين الله تعالى التكوينية و الفطرية و سنة الله تعالى الإجتماعية و الروحية . و حينئذ يخرج من بينهم أناس يصبحون قادة إخترعات الصناعة و سابقين الأولين في إبداع الأراء و الأفكار الحلول الجديدة للشؤون الحياة المتغيرة . و هذا بدوره يحتاج إلى أمرين مهمين و هما :

اولا : المعرفة .

و الثاني : المنهج .

و لكن يبدو أن المعرفة ، إذا استندت إلى المنهج تكون أكثر ضمانا للعصمة و أبعد من الخطأ . فالمنهج يتقدم على المعرفة الصحيحة من جهة ضمان صحتها و لا ضير أن يكون المنهج نفسه يحتاج إلـى المعرفة . لأن المنهج عبارة عن جمع المعلومات و المعينات . ثم تصنيفها ثم تمييزها ثم الإختيار منها . و في الأخير تصبح المعلومات معرفة صحيحة . لأن المنهج علم و أول خطوة فيه .

و القرآن الكريم و الذين آمنوا به في اليوم الأول إلى يومنا هذا ، يدعون الناس إلى القرآن الكريم و فهمه . هذا هو الحق . لأنه جاء لإصلاح الناس . و الإصلاح يبدأ من المحركة الذهنية و المعـارف الإنسانية . و لأنه يبين لهم طريق الحق و يظهر الباطل . و الأهم أنه يوضح لهم كيف يميزون بين الحق و الباطل .

و هذه الكيفية هي النهج في اكتساب المعارف و المنهج في إستنتاج المعلومات الصحيحـــــة .

لأن المعلومات لا تكون علما إذا لم تستند إلى المنهج و المنطق المنسجم .

و حث الإنسان على الرجوع إلى القرآن الكريم ، دون هدى ، ليس كافيا لإستفادته منـــه . و من الضروري أن يبدأ بالمعرفة بمنهجها الذي يوصل إلى العلم الصحيح و المعرفة الحقة . و مـن دون المنهج يضيع الإنسان بين المعلومات الإبتدائية و يغيب عن نفسه في العينات المتراكمة . إذ المعارف و المعلومات تكتسب صفة العلمية بالمنهج . و يبدأ الإصلاح بأمرين : بالعلم الصحيـــح و بإتباعه فعلا : تطبيقه .

رسالة القرآن الكريم

إذا سال سائل و قال ماالذي اتى به القرآن الكريم إلى البشرية ؟

لا يمكن أن يجاب عن هذا السؤال إلا بعد فهم القرآن و تفقهه جيدا . إلا أنه يستطيع كل أحد أن يجيب عن هذا السؤال حسب إهتمامه و اختصاصه بموضوعه . و يمكن كذلك لإنسان واحد أن يجيب بأجوبة مختلفة و بوجهات النظر و بزوايا متنوعة حسب غايته و قصده و مطلبه و جلـــب أنظار الناس إلى موضوع معين .

فلنحاول نحن في هذه المرة أن نجيب عن هذا السؤال للفت الأنظار إلى موضوع مهم و هـــو منهج البحث العلمي في القرآن الكريم . و في نظرنا أن الجواب عن هذا السؤال ينبغي أن ينطلق من نقطة هامة و هي أن القرآن أتى للبشرية بمنهج للمعرفة الصحيحة هي التي توجه الحياة كلهـا و هي منهج لها . و هذا المنهج أبدي لا يبلى . و يمكن لنا إيضاح ذلك بوضع القواعد المستنبطـة من الآيات و بيان المنهج و طرق البحث فيها عن الحق كالآتي : -

الطريقة - المنهج

كل مؤمن بالقرآن يعتقد أن القرآن الكريم هداية و دليل . لأنه وصف نفسه بأنه : هـــــدى للمتقين (1) و هدى و بشرى للمؤمنين (2) و هدى للناس (3) و أكد القرآن على أنه هدايـــة و عبارة عن الهداية فحسب في آيات متعددة و موزعة في ثنايا السور و آياتها . و الهداية هـي الإرشاد و إراءة الطريق الحق . و هنا يتضح لنا وجهان في الدلالة على الطريق الحق .

أ - الوجه الأول هو آخر الطريق و إلى ما يوصل إليه الطريق بمعنى النتيجة المطلوبة و الغايـــة المنشودة في نهاية المطاف هو الطريق الحق . و العلماء قديما و حديثا قد كتبوا و ألفوا كتبـــا

---

1 - البقرة 21

2 - النحل 2

3 - البقرة 180

في هذه الناحية من جهة الغاية المنشودة و هي أولا توحيد الله تعالى و الإيمان به و بما أتى بــــه القرآن الكريم نفسه ثم العمل بموجب الإيمان من الأعمال الصالحة ، و أسهبوا في الكتابة فيها كذلك.
ب - الوجه الثاني هو كيفية الوصول و كيفية السير في الطريق الموصل إلى الغاية و النتيجة المطلوبة و هي الهداية بمعنى كيفية الدلالة و إراءة الطريق و إنارته .

و نحن سنحاول أن نستدل بالهداية على كيفية نشدان الطريق المستقيم و هو المنهج المعبر عنه في العصر الحاضر من الحضارة و الثقافة الإنسانية العالمية . و أصبح البحث عن المنهج علما مستقلا بنفسه و نأخذ الهداية على أنها هي المنهج في التعبير القرآني ، و إن كانت كلمة المنهج قد استعملت فيه على ما يبدو لأول وهلة للقارئ في قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجـا » (1) أليست الهداية إنارة الطريق و الإرشاد إلى الحق و الصراط المستقيم و هو المنهج و هو كيفية السير .

منهجية المنهج :

و العلماء المعاصرون يكتبون في المنهج و المناهج كثيرا و يطيلون فيه و أصبح المنهج طريقـــا لكل علم و اختصاص . فكل من يريد أن يدخل في بحث أو يتخصص في علم من العلوم أو يكتب في موضوع من المواضيع ، فعليه قبل كل شيء أن يثبت و يضع نصب عينه منهجا لطريق بحثــه و ينتهج نهجا خاصا بموضوعه ليصل إلى نتيجة سالمة من النقص و التقصير بالتقصي و البحـث . و مع ذلك قلما نجد من كتب في الهداية على أنها منهج بحث للحياة أو منهج الحياة . و إننا نرى فرقا بين منهج الدعوة أو أصول الدعوة و بين منهج العلم أو المنهج العلمي في القرآن الكريـــم . و إن كانت الهداية بمعى الإرشاد إلى الطريق السوي و الدليل عليه و إنارته و هي بهذا المعنى أيضا هي كيفية الإرشاد و كيفية إراءة الطريق . و الكيفية و الأسلوب هما المنهج في لغة الناس اليـوم . والقرآن الكريم يرينا الطريق و كيفية المشي فيه و الكيفية مهمة جدا مثل المشي نفسه . كما يقول أحد الأساتذة : الصلة و الرابطة بين مفهوم المنهج العلمي و بين مفهوم العلم و مفهوم البحث وثيقة قوية حيث لا وجود للعلم و لا للبحث العلمي بدون المنهج العلمي . (2) و أصبحت معرفة المنهـج علما قائما بذاته ، يمكن أن يطلق عليه منهجية المنهج يعني كيفية إنتهاج المنهج .
و قديما قال الإمام الغزالي شيئا يماثل هذا : و هو : تلقين الدليل شيء و الإستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه (3). و في الحقيقة الإستدلال كيفية إقامة الدليل و هو ليس غير الإنتهاج و اتباع منهج.

---

1 - المائدة 48

2 - د. عمر محمد التومي الشيباني ، منهاج البحث الإجتماعي ، 51 طرابلس 1975 .

3 - أبو حامد الغزالي ، الاحياء 116/1 .

و القرآن الكريم أرسل إلى الإنسان هداية و دليلا له في كل أعماله و تفكيره و هو يشتمل على كل ما يحتاج إليه في حياته ، من طلوع الشمس إلى غروبها ، يوميا و أسبوعيا و سنويا و عمريا . لأنه يقدم للإنسان منهجا ليس في العقيدة و التفكير فقط و لكن في كل حركاته و سكناته و قيامه و قعوده و نومه و راحته ليلا و نهارا . و القرآن يشمل كل هذا بمنهجه و منهجه منهج علمي و موضوعي و رباني بمعنى التعبير القرآني هو فطري . أي طبيعي يخاطب العقل السليم ، و أنه لا يفرق عن المنهج العلمي المعاصر و المنهج العلمي في الأجيال الغابرة .

و من المهم أن نفيد هنا أن المنهج القرآني و المنهج الذي إستعمله العلماء قبل القرآن ، و المنهج الذي إستعمله المسلمون في تشهيد حضارتهم إتباعا للقرآن الكريم ، و المنهج الذي يستعمله علماء عصرنا هو نفس المنهج في الأساس و الأصول لا تغير فيها و لا إختلاف في أصوله و لا في أسسه . و بتعبير آخر أو أشمل لا تبديل في منهجية المنهج و إنما التغير و الإختلاف يحدث في تطبيق المنهج حسب المواضع و الوسائل و الأدوات و الآلات و الأساليب المستحدثة المستعملة المختلفة . و يعبر عن هذا الدكتور عمر الشيباني بقوله : المنهج العلمي ليس قاصرا في تطبيقه على العلوم الطبيعية بل هو قابل للتطبيق أيضا في مجال العلوم الإجتماعية . و هذا لا ينافي أن المنهج العلمي الذي يطبقه العالم الإجتماعي قد يختلف في بعض جوانبه عن المنهج الذي يطبقه العالم الطبيعي . (1) و العلماء الذين يكتبون في منهج البحث و العلم يتفقون على أن المنهج في الأصل و الأساس لا يختلف بين العلوم الإجتماعية و العلوم التطبيقية و الطبيعية . و لكن يختلف إستعمال و استخدام المنهج بين الموضوعات و حتى العلوم الطبيعية نفسها . (2)

المنهج عام و شامل :

و لذلك إذا تحققنا و تبينا المنهج العلمي عامة و قارناه بالمنهج العلمي في القرآن الكريم نرى أن القرآن الكريم إذا أمكن أن نقول هذا تاريخيا ، و إذا لم نعتبر منطق آرسطو منهجا (3) هو الكتاب الأول الذي أفاد و وضع و بين أسس المنهج العلمي و هو لا يتغير منهجيا ، كما ترى المنهج في العلوم الحديثة لم يتغير شيء منه إلا بالتفاصيل التطبيقية .

---

1 - عمر الشيباني نفس المرجع 60

2 - فهمي سعيد يعرب ، طرق البحث 13 ، 1975 ، حسين عبد الحميد أحمد رشوان ، العلم و البحث العلمي ، 180 ، 1985

3 - منطق أرسطو منهج التفكير للعقل المجرد ، و أما منهج القرآن فللتفكير و العقل العملي .

و إذا أطلقنا لفظ المنهج ، نقصد بذلك المنهج في العلوم الطبيعية و التطبيقية و كذلك المنهج في العلوم الإجتماعية . و يقصد بالعلوم الطبيعية جميع العلوم التي تتناول بالدراسة الطبيعة الجامدة و الطبيعة الحية و ذلك كعلم الفيزياء و علم الكيمياء ، و علم الجيولوجيا و علم الفلك و علم الحيوانات و علم النبات و ما إلى ذلك . و يقصد بالعلوم الإجتماعية العلوم الإنسانية و هي جميع العلوم التي تتناول بالدراسة الظواهر و الأحداث و المؤسسات و النظم و العادات و التقاليد الإجتماعية كعلم التاريخ و علم الإجتماع و علم الإقتصاد و علم السياسة و القانون و الآداب و علم النفس و التربية (1) و نضيف إلى هذه العلوم الفلسفة و العقائد و المنطق لأن هذه العلوم الإجتماعية تتعلق بالإنسان و تدرسه و تدرس العلاقات و المناسبات و الروابط بينه و بين أخيه الإنسان و بينه و بين خالقه و بينه و بين مجتمعه و يعني ذلك أنها تجمع بين كائن حي و كائن حي إستنادا إلى ما يصدر من هذه الأحياء من أفعال و حركات منبعثة عن إرادتها الحرة التي هي خارجة عن الكائنات الطبيعية . و العلوم الإجتماعية خاصة بالإنسان و لذلك تسمى بالعلوم الإنسانية .

أضف إلى ذلك أن الوصول إلى النتيجة الصحيحة المطلوبة في العلوم الإجتماعية ليس مؤمنا عليه مثل العلوم الطبيعية . و من جملة الأسباب التي تجعل المادة (الموضوع) و الظاهرة التي تعالجها و تدرسها العلوم الإجتماعية أكثر تعقيدا من المادة و الظاهرة التي تدرسها العلوم الطبيعية . لأن العلوم الإجتماعية تهتم بالإنسان الذي يعتبر أكثر الكائنات الحية تعقيدا كفرد أو كعضو في جماعة و مجتمع .و هو فرد مستقل له رأيه و تفكيره و إرادته و إعتقاده و عواطفه و لا يتأتى ملاحظته على المستوى الفيزيائي وحده بل لا بد من ملاحظة إضافة وجهة نظر من إجتماعية أو نفسية أو طبيعية . و في الحقيقة أن الإنسان مزيج و خليط مركب من المادة الجامدة و من المادة الحية العضوية ، و من روح إلهي و هو إنسانيته و بها يتميز عن الكائنات الحية الأخرى . و دراسة الإنسان تستند إلى هذه العلوم التي تدرس هذه الأنواع الثلاثة من الكائنات .

العلوم الإنسانية و العلوم الطبيعية :

إن عنصر الإرادة يتدخل في العلوم الإجتماعية و يؤثر في عدم الوصول إلى النتيجة الحتمية المطلوبة . و مع المؤثرات في إرادة الإنسان من التقاليد و الأعراف ، و التربية و المجتمع و الثقافة، فإن الإرادة حرة في ذاتها و التمكين من الإنفلات من هذه التأثيرات يعني: فإن كان لإنسان تحت تأثير الإنفعالات وتفاعلات وعلاقات مختلفة كثيرة وينبغي للباحث ملاحظتها ولكن لا يؤمن لها

1 - د. عمر الشيباني ، نفس المرجع 46

الإنحراف و الإنزلاق عن سواء السبيل .

و لذلك يتراءى الشيء للإنسان الواحد حقا من جهة و زاوية ينظر منها إلى المشكلة و يبدو للإنسان الآخر باطلا من جهة أخرى . و كثيرا ما تظهر للإنسان الواحد إحتمالات مختلفة و متنوعة من جهات مختلفة ويحار في ترجيح إحداها على الأخرى إذا لم يستعمل أو لم يعرف كيف يستخدم المنهج الصحيح بالدقة و الضبط ليصل إلى ما هو صواب . و عدم معرفة المنهج محل مزلة أقدام الناس .

فعلى سبيل المثال تعطى في الأجوبة أنواع الإحتمالات أي في الإختبارات المحدثة خمسة أجوبة لسؤال واحد . و كل جواب متقارب في المعنى خاصة في العلوم الإجتماعية ولكن واحد منها هو الصحيح . فيكون المسؤول حائرا بين هذه الأجوبة المتشابهة و الملتبسة عليه . ولا يدري الصواب منها إذا لم يدر كيف يعالج المشكلة و كيف يستعمل المنهج الصحيح لنشدان ما هو الحق فيها .

فإن القاعدة الأولى الاصولية في نظرية المعرفة أن يعرف الانسان أين و كيف يجد المنهج الصحيح الموصل إلى المطلوب ومصدر معرفة المنهج و الطريق . فالقرآن الكريم يعطينا أول قاعدة في وجدان المنهج الأقوم و يخبرنا بمكانه .

القواعد و الأصول
للوصول إلى الحق و الصواب في منهج القرآن

القاعدة الأولى في معرفة مصدر المنهج :

و إذا وقعت أمثال تلك الإحتمالات في الأمور الإجتماعية فينبغي على الإنسان أن يقوم بالفحص و البحث عن كل واحد ثم المقارنة بينهما ثم يأتي عمل الترجيح . و إن وقوع الإحتمالات في الشؤون الإجتماعية كثيرة لأن أسبابها كثيرة غير منضبطة كما في الشؤون الطبيعية . و لذلك يحتاج الإنسان إلى منهج يجب عليه استخدامه حتى يجد الجواب الصحيح منها . لأنه لا شك أن واحد منها هو الحق و الصواب و هنا يأتي القرآن و يسعف الإنسان بإرشاده الى مصدر المعرفة في المنهج و هو قوله :

«إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »(1)

أثر الإنتهاج في تفكير الإنسان

فإن الآية تشير إلى أن في الحياة طرقا متنوعة و أساليب و ألوانا مختلفة جذابة تلتبس على

---

1 - الإسراء 9 .

الإنسان و يتشابه بعضها البعض ، كأن كل واحد منها طريق مستقيم يدل و يهدي الى النتيجة المرغوبة . ولكن الإنسان لايدري أيها أكثر إستقامة من الأخرى . ففي هذه الحالة يأتي القرآن ليرشد الإيسان و ينقذه من الحيرة ، و يدله على ما هو أقوم فيها ، ولايضل إذا اتبع منهج القرآن العلمي دون إنحياز .

وهذه هي القاعدة العامة للمؤمن بالقرآن و غير المؤمن به ، يستفيد منها كلاهما على السواء و من يتبع منهج القرآن في أي عمل من أعماله يصل بغيته في ذلك العمل دون شك .

يقول القرآن نفسه بأنه هدى للناس؛ من يتبعه يجد سبيله و طريقه فيما اتبعة لأنه قانون خالق الكائنات الشامل على الكون كله بما فيه الإنسان فلا مانع أن يجرب الإنسان ذلك فإن الآية الكريمة " **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** " على اطلاقها هي من أوجز الآيات لإرشاد لانسان و إعطاء الحرية له مع مسؤوليتها بحيث يهتدي إلى ماهو أقوم و اصح و أنفع له في كل أموره و شؤونه الدينية و الدنيوية . فعلى هذا الأساس اذا قصر الإنسان في عمله أولا ، وفي عمله ثانيا ولم يتعلم كما ينبغي له ولم يعمل بموجب عمله و لم يبذل جهده في ذلك ، وارتدى ثياب الكسل و التواني و تأخر في تنفيذ ما وصل إليه من المعرفة الواجبة عليه ، يكون مسؤولا عند الله تعالى و عند مجتمعه لأن علمه و عمله سينفعانه و غيره من الناس . لأن المجتمع زوده بإمكانات التعلم و لأنه مسؤول عن نفسه وعن الآخرين في الإنتفاع لنفسه و للآخرين . و الإنسان الفاهم للقرآن سيطبق مافيه من التوصيات فإن هذه الآية المذكورة تهدي إلى شيئين أساسيين :

الأول :

هو العلم و المعرفة بأشياء واحتمالات كثيرة في مسألة واحدة حتى يمكن المقارنة و المقايسة بينهما ليجد من بينها ما ليس بقويم وبين ماهو قويم وبين ماهو أقوم و من دون معرفة تلك لايعرف هل أصاب ماهو أقوم أم لا ؟

الثاني :

أن يتمسك با لأقوم و يرجحه على الأمور الأخرى و يعزم على فعله و إنقاذه ، و هو دستور في العلم و العمل و هو أساس وأصل و منهج صحيح في الحياة . إذا نظر الإنسان من خلال هذه الآية إلى الأمور فسوف يرى ما تشمله من المعاني في أنحاء و أنواع الحركات و السكنات الإدارية و الإجتماعية و الفردية .و تحفز هذه الآية الكريمة الإنسان العاقل الى التفكير السليم ، إذا أراد أن يقوم بعمل أو يوقع على ورق يلقي درسا و ما إلى ذلك من الأمور والأفعال ، أو أراد أن يستريح ليجمع قواه و شمله ، فيجب عليه أن ينظر متى ؟

و أين ؟ يعمل ذلك أو لا يعمل . هذا هو النظام للإنسان الذي ينظم و يرتب أموره و شؤونه على نظام و حساب لئلا يفوته وقت فارغ .

من قديم الزمان إلى يومنا هذا و منذ عصر صدور الإسلام إلى جيلنا ما زال أهل العلم و المعرفة و أولو الألباب يقولون : إن القرآن الكريم فيه أصول و أسس و مبادئ و قواعد عامة و شاملة على ما وقع و على ما سيقع إلى يوم القيامة ، و ترك التفرعات و التطبيقات الجزئية لفهم الإنسان و إدراكه لها حسب شروط الحياة و ظروف المجتمع الذي هو فيه. وهذا هو القول الحق. من دون ذلك لا يكتب للإسلام الدوام و الأبدية . و قد عمل به السلف الصالح من هذه الأمة الخيرة حسب زمانهم و مكانهم على مستوى العلم و الثقافة الموجودة و المتهيئة لهم في مجتمعهم. على الخلف الصالح أن يتبع الأصول و المبادئ و المناهج القرآنية نفسها ليسيروا على النهج الصحيح و الهدى القويم و يغترفوا من دلوهم النقي و يكونوا خير خلف لخير سلف ، لا كما قال المشركون :

" بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا " (1) دون بحث هل كانوا على الحق حقيقة أم لا ؟ .

وهذه الآية ترفض الاقتداء بمن سبق من الآباء و الأجداد و المعلمين و المربين ، و اتباع أقوالهم وأدلتهم دون فحص و تمحيص من جديد . و يحتاج المسلمون أيضا أن يختبروا نهج آبائهم هل كان صحيحا أم لا ؟ و لكن هذا الإختبار يلزم أن يبنى على أسس القرآن مباشرة دون انحياز و دون استناد إلى ما أقامه الآباء من الأدلة . و على المسلمين أن يختبروا الأدلة قبل إختبار الأقوال المستندة إليها . و هذا لايعني ردها ، إذا كانت صحيحة تاكدوا من صحتها و إذا لم تكن صحيحة صححوها . وهذا هو المنهج الصحيح للبحث عن الحق و الصواب مجردا عن الأفكار المسبقة . و هذا هو السر في الدعوة إلى الرجوع إلى القرآن الكريم في كل مرة من جديد .

إذا راجع الإنسان القرآن الكريم ، يرى أنه لايدع الإنسان هملا يعيش على جهد الآخرين علما و عملا و لو كان آباءهم ، ولايترك له مجالا للكسل و التواني . و القرآن يعطي للإنسان الحركة و النشاط و يطلب منه السعي و الجد في كل وقت و مكان .

العناية بفهم القرآن :

وكلمة " أقوم " وإن كانت كلمة عربية أصيلة . ولكنها و معناها دستور إلهي يحث بها و بأمثالها القرآن الكريم الناس على أن يتمسكوا و يعتصموا به كما يرى وهو قانون إلهي و منهج رباني ليس خاصا بالمؤمن به ، وإنما هو عام يعمل بموجبه المؤمن به و غير

---

(1) البقرة 170 ، المائدة 104 ، الزخرف 22 ، 23 .

المؤمن به من دون معرفته . لأنه سنة إلهية ينفذ حكمها على كل واحد وفي أي مجتمع بشري، فإن من يقوم بالعمل به يفوز و ينجح كما نرى اليوم بأعيننا و نسمع بآذاننا ، و نقرأ من الأخبار عن الناس الأخرين .

إذا لم ينجح المؤمنون في أعمالهم الدنيوية و الأخروية معا ، فلأن من دون الأعمال الدنيوية لا تصلح الأعمال الأخروية ، كلها تجري و تنفذ في الدنيا و لا يفوزون بمطالبهم وعندئذ ينبغي عليهم أن يسألوا أنفسهم لماذا ؟ و فيماذا يقصرون ، وأين يخطئون ؟ فإن طرح الذنب و الفشل على عاتق الآخرين واتهامهم بالتعويق لاينجي المسلمين من المسؤولية ولا ينفعهم أيضا .

نعود ونكرر أن النهج القرآني عام و شامل للبشر دون التفات و نظر إلى دين الناس و أقوامهم و ألوانهم . فإن الله عز وجل أرسل القرآن موازيا و محاذيا لقوانينه الإلهية الشاملة للمخلوقات و الكائنات الحية و غير الحية . و القرآن مثلها ، و هو قانون من القوانين الإلهية و سنة من سنن الله الكونية و الإجتماعية و الروحية . و يقدم القرآن الكريم الكريم منهجه ليكون متبعا من قبل الناس كلهم في كل أفعالهم و سلوكهم في حرفهم و مهنهم و ليلهم و نهارهم و على هذا الأساس يقول قوله هذا مرشدا و هاديا الناس ليسلكوا الطريق الأقوم و يسيروا على المنهج الصحيح كي يأخذوا و يعملوا به . و هناك كتب ، منها ما يدل على ما دون القويم ، و ما ليس بقويم ، و منها ما يدل على القويم، و القرآن الكريم هو الذي يهدي فقط إلى الأقوم و يدل عليه .

و هذه دعوة القرآن . ألا ينبغي على المؤمنين به – على أقل تقدير – أن يجربوه ؟ و إذا كان كذلك فيجب على من يريد أن يجد الأقوم و يصل إليه أن يقرأ القرآن ليجد فيه الهدى و يهتدي بهديه و هو منهجه .

القواعد المتبعة في البحث

القاعدة الثانية : في المنهج للبحث عن معرفة الصواب و الحق :

« فبشر عبادي الذين يستمعون القرآن فيتبعون أحسنه » (1)

هذه الآية الكريمة تقدم للبشر المنهج العلمي في العلوم الطبيعية و العلوم الإجتماعية معا و هي تشمل الأصول الآتية :

(1) الزمر 18

أ - الأصل الأول : الذين يستمعون :

الدقة في البحث و المفاهيم و إدراك المسألة بصورة واضحة الإستماع للفهم و الإنتباه للإدراك . هذه الافادة الوجيزة العامة و الشاملة تعبر عن الناس الذين يصغون إلى مايقال لهم إصغاء تاما ويسمعون قصدا ويقصدون بالسماع الإستفادة لأن الذي يقصد الإس[illegible] [illegible]زم على السماع هو الذي يريد أن يعرف ويفهم مايسمع ليستفيد. وهذا لا يمكن إلا إذا كان السماع بحسن النية ويقصد الإستفادة . لأن هناك فرقا بين الإستماع و السمع . و السمع يكون قصدا و بغير قصد يعني مصادفة ، و الإستماع لا يكون إلا بقصد و جهد و سعي للوصول إلى الفهم و الإدراك .

(ب) الأصل الثاني :القول :

جمع المعلومات و العينات ، و ما يمكن من الأقوال و الآراء المحتملة فإن القول في الآية بمعنى جميع الأقوال ، و الأفكار الممكنة و الآراء المحتملة لأن القول يأتي بمعنى الرأي و الإعتقاد و الفكر و الاخبار و التعبير و الإفادة و ما يدل على الأفعال . و هنا يفيد الجمع بمعنى الأقوال و الآراء و الأفعال ، لأن الألف و اللام للجنس و هو يفيد العموم بمعنى كل قول و رأي أي الآراء و الأقوال . و يؤيد هذا المعنى لفظ « أحسنه » لأنه إسم تفضيل لا يستعمل إلا لشيئين على الأقل فصاعدا . و المعنى يصير هكذا .

الذين يريدون أن يستفيدوا من الأقوال و الآراء فينبغي عليهم أن يسمعوها بنية حسنة صادقة ومخلصة للفهم و إدراك المعنى عما يقال و يعرض على الإنسان .

ويفيد القول أي الأقوال هنا بمعنى جمع المعلومات في موضوع ومسألة واحدة و الإطلاع عليه و بدون ذلك لا يتحقق القول بمعنى الأقوال ليختار أحسنه . و كذلك يقصد بالقول مصدر المعلومات إذا كانت تستند على تجارب واختبارات ومعرفة تجارب الآخرين . وأما إذا كانت تستند على تجربة الشخص نفسه ، و المسألة تتطلب من الشخص نفسه أن يحقق الموضوع . فالقول يدل على العينات التي تجرى التجربة عليها .

و حينئذ ينبغي على الباحث و العالم أن يجرب ويختبر كل عينة محتملة أن تدخل في الموضوع حتى بهذه الصورة يستطيع أن يسمع و أن يرى نتيجة كل عينة مختبرة لأنها مصدر معرفة له ويصل إلى نتيجة مطلوبة ومنشودة أكثر صوابا و أقرب إلى الحق و اليقين، لأنه يمكن له المقارنة و المقايسة بين أشياء ممكنة الحصول عليه بصورة واسعة . وهو استقراء و استقصاء في جمع المعلومات . كلما كان الإستقصاء و جمع المعلومات اتم يقدر أن يجد الأحسن بين الأشياء الكثيرة و يقل خطأه و يقترب من الصواب أكثر أمنا . هنا له الحرية

في جمع المعلومات و العينات . و تتدخل إرادته .

(جـ) الأصل الثالث : فيتبعون : انجاز النتيجة وانفاذها

العلم يوجب العمل و التنفيذ . لأن المؤمن بالقرآن يعرف يقينا أنه إذا علم شيئا يجب عليه أن يقوم به . و هذا بدوره يوجب عليه أن يتعلم قبل ذلك و العلم قبل القول و الإعتقاد و العلم ضرورة و واجب لأنه بدون العلم لا يعلم ماذا يقصد أو كيف يعمل ؟

فالاتباع هو العمل و يتعلم أو لا ثم يطبقه و يتبع ما تعلمه و هنا يأتي العمل أيضا بوجب العلم الذي وصل إليه الإنسان بحسن استماعه إلى أقوال الآخرين وحسن تجربته الشخصية على عينات متعددة بعيدا عن الضغط و التأثيرات المادية و المعنوية الظاهرة و الباطنة و متجردا عن التعصب لفكر أو لقول معين . فحينئذ سجل عليه اتباع و إنفاذ ما وصل إليه و العمل بما تعلم و عرف من النتائج العلمية المدروسة . وهنا يحتاج إلى حرية فكرية و عملية أكثر للإتباع بحرية.

(د) الأصل الرابع :أحسنه : الإنتقاء و الإختيار

فهذه الكلمة « أحسنه » في الآية الكريمة تعطينا معنى المقارنة و المقايسة بين الأشياء الكثيرة المختلفة في العلم و القيمة و درجات بين الآراء و الأقوال و الإعتقادات و المعلومات التي حصل عليه من الآخرين أو بنفسه و محاكمتها و التفكير فيها لترجيح الأحسن من بينها . و من دون النظر و التفكير فيها و مقايسة بعضها مع بعض لا يمكن الحكم و تمييز السيء و القبيح منها . و بين الحسن و بين الأحسن منها . لأن في الأقوال و الآراء و الإختيارات ما هو سيء و ما هو حسن و ما هو أحسن . و المأمور به هو أن يختار الإنسان و يرجح ما هو الأحسن و ما أصعبه حينئذ فيجب على الإنسان المؤمن أن يبحث عن الأحسن و لا يكتفي بالحسن ، حتى إذا لم يصب الأحسن فيما بحث عنه فيصيب على الأقل الحسن من بينها و لا يقع في السيء و الخطأ منه إلا نادرا و لذلك لكلمة « أحسنه » معنى دقيق و شامل يستند إلى مقايسة و محاكمة بصورة حيادية و يوصل التحكيم إلى النتيجة المنشودة . و إذا أخطأ الإنسان المحايد المحب للحق و الباحث عنه لوجه الله تعالى في نشدان الحق فله أجر واحد ، إذا لم يقصر في شروط البحث حسب مقدرته المادية و الذهنية .

(هـ) الأصل الخامس : حرية الإنسان و مسؤوليته

فإن الآية بجملتها تدل على حرية الإنسان ، لأنه مأمور أن يقوم بالعلم و العمل بنفسه ليكون الإنسان حرا و مستحقا لتبشير الله تعالى بالآية فينبغي أن يكون حرا في التفكير و سالما عن التأثيرات الذهنية العقلية و المادية . و مع ذلك، ينبغي على الناس الذين يحبون أن يصلوا إلى هذا التبشير أن يستعملوا أذهانهم و عقولهم لفهم الآراء و الأفكار و القيام بالتجارب

و الوصول إلى النتائج العلمية و الإستفادة منها بصورة حيادية دون إنحياز و انحراف تحت ضغط الناس و تأثير التقاليد و الآراء المسبقة منجذبين إليها إنجذابا يضعهم في ريب و شك مما وصلوا إليه من النتائج العلمية .

فإن الإنسان الذي يسمع قولا أو فكرا ثم يخضع هذا القول لما عنده من الأفكار و الإعتقادات و التقاليد المتحكمة فيه و يؤوله حسب فكرة الثابت و السابق له فهو لا يعتبر ممن إستمع القول و قصد الإستفادة منه و لا كان له حسن النية و التعلم و الدراسة و البحث عن الحق و الصواب و لا يدخل في المبشرين في الآية المذكورة ، لأنه لم يعمل عقله مستقلا و إنما كان تبعا . و الآية تمدح أرباب العقول المفكرة المستقلة الحرة .

و المنهج العلمي الصحيح كذلك يرفض الإعتماد الكلي و الجزئي على العادات و التقاليد و حكمة السابقين الغير الممحصة و تفسيراتهم و آراء أصحاب السلطة من أي نوع كان و يفرض على الباحث الفحص الدقيق و التقصي المنظم و الملاحظة الموضوعية النزيهة و التفكير المنطقي السليم(1).

(و) الأصل السادس : عمومية : منهج القرآن

إذا أنعم الإنسان النظر و تفكر في معنى الآية يجده عاما وشاملا على المنهج في كل شيء ، في الأمور العقلية و التجريبية و العلمية سواء في الإعتقادات أو الأعمال و العلوم الطبيعية أو العلوم الإجتماعية ومما تشتمل عليه هذه العلوم التي يكتسبها الإنسان علما ويقوم بها عملا .

و مثل هذه القواعد العامة إذا عرضت على الناس فإنهم يترا ءون في أول الأمر و كأنهم استحسنوها و قبلوها ، و لكن بعد هنيهة من الزمن و بعد رجوعهم إلى ما عندهم من المعلومات المترسبة في أذهانهم و الأفكار المتقبلة عندهم سابقا و ما استندت إليه من مصالح و منافع شخصية و فردية أو إجتماعية يندفعون إلى الرفض و الإنكار و يبدأون بأسئلة محرجة و تقديم إعتراضات ليؤدوا ما يجب عليهم في جحد هذه الأشياء الجديدة عليهم و إنكارها .

(ز) الأصل السابع : المعيار و الميزان :

إذا كان من الواجب على الإنسان أن يسعى و يبذل جهده ليجد أحسن الأقوال و أحسن الأعمال و هذا ما تدل عليه الآية ، و لكن على أي أساس سوف يقيس الإنسان الأشياء و يقارن بعضها مع بعض و يزنها ليتحقق الشيء الحسن أو الشيء الأحسن ، و كيف سيحكم على الشيء بأنه حسن أو أحسن أو قبيح .و كيف يقوّم الشيء الموجود أمامه و تحت يده بالحسن و القبح ، إذا لم يكن عنده أصل و أساس يستند إليه مسبقا في أول الأمر ؟

---

(1) د. عمر التومي الشيباني ، نفس المرجع 54

إذا كان المعترض أو السائل يريد بذلك أنه هو وحده فقط يستطيع أن يقوّم الأشياء و يحكم عليها بالقبح أو الحسن أو الأحسن على ماثبت عنده و تعود عليه من المقاييس و الموازين من أئمته و أساتذته أو من مدرسته و بيئته سابقا ، فلا جواب له ، لأنه يريد أن يتحكم بما حصل عليه من آبائه نسبا و صهرا و علما و لكن لا يوافق القرآن الكريم لإصداره الأحكام و تقويم الأشياء حسب آرائه المسبقة .

و أما إذا كان السائل أو المعترض مخلصا في اعتراضه و سؤاله للوصول إلى الميزان و المعيار الحق فله أن يطلب زيادة إيضاح حتى يطمئن و يكون على يقين بما يعمل و الجواب الصحيح موجود في مضمون الآية و سيأتي إيضاحه في النتيجة .

القاعدة الثالثة :

الإنسلاخ عن الآراء المتقلدة و الأعراف الموروثة و تركها جانبا :

إن القرآن الكريم قد أنكر و نقد من ادعى من الناس بأنهم يتبعون آباءهم و أجدادهم و زعموا بذلك أنهم على الحق لما عندهم من المقاييس و التقاليد الموروثة و المخالفة لما جاء به القرآن الكريم من الحق ، و أرادوا أن لا يتركوا ما وجدوا و تعودوا عليه من الإعتقادات و الأفكار الموروثة و المتركزة في نفوسهم و المنقولة جيلا بعد جيل .

أليس من المسلمين من يدعي نفس الدعوى و يقول أقوالا مشابهة لأقوالهم التي انتقدها القرآن الكريم و اعتبرها القرآن جحودا لنفسه .

أ - « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » (1) نزلت في غيرنا و لم تنزل لأجلنا و لذلك لسنا مخاطبين بها .

و يؤيد إدعاءه هذا بأنه يتبع القرآن أو يتبع من اتبع القرآن الكريم بالحق حسب رأيه ولو بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرنا . و كل من ينتمي و ينتسب إلى الإسلام من المذاهب و الفرق من المتقين و الصالحين و المفسدين و الطالحين يدعي ذلك و يزعم أنه على الحق . و يأتي بيان ذلك بآية :

ب - « و كل حزب بما لديهم فرحون » (2) .

يجب على المسلمين أن يسألوه أو يسألوا أنفسهم هل يعتبر إدعاؤه هذا صحيحا أم يحتاج إلى البحث و التحقيق ؟ هل الذي يدعيه هو الصواب أو فيه انحراف و ضلال ؟ لا يمكن لنا الحكم إذا اتبعنا القرآن إلا بالمنهج القرآني الذي نحن بصدد شرحه و هو كيفية البحث وطلب الحق .

---

1 - البقرة 170

2 - الروم 32

و بقوله تعالى كذلك تثار الشبهة في تعقل آبائهم و إلقاء الشك في هديهم .

ج - « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا و لا يهتدون » ؟ (1)

لأن القرآن الكريم آخر تبليغ من الله تعالى للإنسان ما دامت السماوات و الأرض قائمة و الإنسان موجودا فيها . و على كل مخاطب و عاقل وفاهم و كل من له أهلية لذلك أن يرى نفسه مخاطبا بكل ما جاء به القرآن و أن يقيس أعماله واعتقاداته على ما في القرآن من مبادئ و أحكام و يزن كل حركاته و أطواره وسكناته بميزانه و يكيل نفسه بمعياره . فلا يمكن أن يفرق القرآن الكريم و يقول هذا لي آخذه و أتمسك به ، و هذا ليس لي و هو لغيري ، ويكون صاحبا لبعض و مسؤولا عنه . و في الحقيقة بعضه له و البعض الآخرعليه . و في كلتا الحالتين هو مسؤول عن الكل و مخاطب بكل ما فيه دون تبعيض و تجزئة . و القرآن كله يخاطب المؤمن . حينئذ إذا ترك الإنسان على تقليد آبائه كيف يمكن له الوصول إلى الحق و الصواب و كيف يمكن أن يطلب منه الرجوع إلى القرآن ؟ و ما فائدة ذلك ؟ لأن كل إنسان له ميل و استعداد تربوي واجتماعي و هو تحت تقاليد واعتراف البيئة و ثقافة المجتمع .

و كيف يميز بين من هو على الحق و الصراط السوي و بين من هو على الباطل ، إذا لم يكن هناك لفحص المعايير الموجودة معيار آخر و إذا سلم المعترض على القاعدة في عدم اتباع الآباء من دون التفتيش و الفحص و البحث عمن هو المحق و من هو المبطل ؟ فقد سلم المنهج القرآني على إطلاقه من الإعتراض لأنه إذا وضعت المشكلة تحت الإختبار كفى بحثا و تمحيصا لأنه لايعرف ماذا سيحصل من النتيجة . و هذا كاف لأثارة المسألة و هي خطوة أولى طلبها القرآن أن يخطوها الإنسان .(2).

القاعدة الرابعة :

منهج التخاطب مع الناس واستعمال أسلوب المسامحة مع المعارضين .

إن القرآنم الكريم جاء ليبلغ الناس ما يحتاجون إليه في الحياة من الأحكام و المبادئ و الأسس التى من جملتها الإيمان بالله عز و جل و الإعتقاد بتوحيده الذي عرف في التاريخ البشري بالدين الحق و التدين . و للناس سابقات في الدين و الإيمان . و لهم تقاليد موروثة و راسخة في قلوبهم . و إذا بدأ القرآن يخاطبهم ، فأول مايبدأ بالكلام عن الدين كان الناس

---

1 - البقرة 170

2 - و قد أوضح الإمام الغزالي هذا التقليد الذي يعمي الناس و يعلم بصورة واضحة و تأثير التربية من الصغر إلى الإقتصاد في الإعتقاد 173 .

يعرضون عن السماع و الإستماع . لأنهم مشبعون بذلك و لا يرغبون في تغيير دينهم و تقاليدهم كما هو مجرب عليهم في تاريخ البشر و الأديان قديما و حديثا. و لا يمكن بل يصعب جدا أن يجلب أنظار الناس و التفاتهم و أسماعهم للتخاطب و التعارف إذا خوطبوا بشيء لا يرغبون فيه و ينفرون منه و لذلك أتى القرآن الكريم بأساليب و مواضيع مختلفة و متنوعة تهم الإنسان في حياته و في أطواره و مراحل حياته . فمثلا في القرآن الكريم آيات تدل على إيجاد المناسبات مع الناس الآخرين و إحداث علاقات للتقرب و الإقتراب منهم حتى لا تنقطع و يوجد فرصا للتخاطب و التعارف و المحادثة مع الآخرين في مناسبات و فرص جديدة للتبليغ و الإرشاد و من جملة تلك :

« و إنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » (1)

و في هذه الآية يظهر لأول وهلة وكأن القرآن تنازل عن دعوته ، و هو غير صحيح . إذ أراد القرآن أن يكسب خصمه بأسلوب أدبي منطقي و منهج علمّي . فإنه يقول : واحد منا على خطأ و الآخر على حق و بذلك أظهر لخصمه أنه لا يريد أن يتغلب عليه و يتبجح بالغلبة . و إنما يحب أن يصل إلى الحق . و بما أنا اختلفنا في ما هو الحق و انحصر الإختلاف بيننا على شيئين إثنين و هما الحق و الخطأ . و ليس هنا إحتمال ثالث .ولذلك فإذا كان أحدنا على حق فالآخر يكون بالضرورة على الخطأ و لكن ليس معينا و بيّنا الآن .

و هذا أسلوب منطقي قويم . لأن الخصم إذا قبل بأن الحق دائر بينهما و ليس ثابتا لجانب واحد معين . فقد فرح الخصم لأن النقاش قد انتهى بصورة لا غالب و لا مغلوب . و لكن الخصم قد وقع في ريب و شك على أنه يمكن أنه يكون على خطأ و خصمه يكون على حق .

و هذه من مناهج التلقين و التبليغ و هي إيقاع الخصم في شبهة و إلقاء الشك في ذهنه و سيتمخض الشك فيه و هو يحتاج إلى وقت . و حينئذ يتركه القرآن و لا يصر على النقاش ، بتحية طيبة من عنده ليلتقي معه في فرصة أخرى . و هكذا منهج القرآن . يحدث الصداقة و الرابطة بين الناس ليتكلم معهم بهدوء و سكينة دون غضب و صياح و تكفير و تضليل و هو يعلم متى و أين يستعمل هذه الكلمات . أعتقد أن المسلمين الأول فهموا هذا المنهج و طبقوه و نشروا الإسلام . و لم يكونوا كالمسلمين اليوم .

القاعدة الخامسة :

إيجاد علاقات مواتية لفطرة الإنسان و متطلباته .

أ - بدأ القرآن الكريم كما هو معروف بالنزول بأمره « أقرأ » . و ليس تحت هذا الأمر الجليل

---

1 - السبأ 24

إلا إرشاد الناس جميعا و حثهم على القراءة . و بما أن الإنسان مولع بالتعلم و المعرفة بالفطرة كما تنبه إليه الحكماء قديما ، جاء القرآن الكريم يؤيد هذا الميل الفطري و يستند إليه و يريد أن ينفذ إلى قلوب الناس من منافذ هذه الفطرة و يجرهم إلى أشياء أخرى ليستمعوها منه . و لإيجاد الرابطة و إحداث العلاقة بين لناس ، إستند القرآن الكريم إلى ميزة من ميزات الفطرة البشرية و هي الرغبة في المعرفة و حب الزيادة فيها للوصول إلى درجات عالية مرموقة بين الناس في العلم و الإدراك ليتميز بعضهم عن بعض .و حب التمايز بسبب التنافس و هو بدوره يجعل الإنسان يتقدم في العلم و اكتساب الفضائل المعنوية . و هو يتحقق باتصالات مباشرة مع الآخرين لتبادل الآراء و الأفكار و المعارف بواسطة التعرف و التخاطب و التنادي والتحادث و التجاوب ، سمتها الظرافة و الأدب و المنطق المنسق في الكلام و المناظرة . و إلا كيف يمكن إيصال البلاغ إلى الآخرين إذا طردهم في أول كلمة و لم يستعمل أساليب الجذب إلى الإستماع و الإصغاء . و مما لا شك فيه، أنه مالم يكن هنالك أساس و أصل مشترك و مبادئ مشتركة بين الناس ، أيا كانوا ، فلا يمكن لهم أن يتفاهموا ، أو أن يسمع أحدهم كلام الآخر ليلتقيا في المعارف و القواعد و المسلمات .
و هي موجودة للتفاهم عند الناس قبل نزول القرآن . جاء القرآن يستعملها للتفاهم معهم و هي ليست غريبة عليهم فالقرآن يعتمد تلك المبادئ بأنها إذا استعملها الناس صحيحة وسليمة كما هي ، سيقبلون دعوته دون شك . لأن صاحب القرآن هو خالق هؤلاء الناس و واضع تلك المبادئ في فطرتهم .
ب - يعتقد المؤمنون ، بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى و هو خالق الكائنات و خالق الإنسان . و هو يعلم ما خلق و هو اللطيف الخبير . و هو يعلم ماذا يستطيع الإنسان أن يعلمه . و الله يعتمد الإنسان في علمه و تجربته الشخصية و الأسس و الأصول التي يستند إليها ليستفيد منها في حياته الفردية و الإجتماعية عند تفاهمه و تخاطبه مع أخيه الإنسان الآخر .
عندما يخاطب القرآن الناس .أول ما يخاطبهم بأشياء عمومية يستفيدون منها في مصالحهم الظاهرة . ثم يأخذهم تدريجيا إلى ما ينفعهم و يضرهم من المصالح و المفاسد في الحياة المادية ثم إلى القيم المعنوية و الروحية و إلى المبادئ العقلية و بواسطتها كلها يشاهد آثار الله الكونية و ينبهر بعظمة الله و هي سعادته في الدارين . و هو معنى الإحسان في حديث النبي صلى الله عليه و سلم كأنه يرى الله فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه .
ج - و هذا من غايات القرآن حيث إنه لم يأت ليربط الإنسان بربه فقط و إنما جاء لينظم حياة الإنسان مع ربه و مع الناس و مع نفسه . و لذلك فإن القرآن شامل على القوانين الطبيعية و الإجتماعية و العقدية و العملية و غيرها و هو يحتوي على أنظمة للبشرية كلها . و هو يعلم

الناس ما ينقصهم و ما يكملهم لتتكون شخصية إنسانية واحدة متكاملة . لأن من أصل أسس الإسلام ومن أصل منبعث عن روح الإسلام هو أساس لإنشاء و إيجاد شخصية إنسانية واحدة متوازنة و متقومة و متوازية بين متطلبات حياته الروحية و المعنوية و بين متطلبات حياته المادية. و المعايير و الموازين موجودة في الإنسان و هو مفطور عليها و مدرب عليها طوال التاريخ و لكن قد وقع فيها الإنحرافات في الإستعمال و الإستخدام فجاء القرآن ليصححها و يصلحها . لأنه ليس بدعا في المبادئ و الأصول .

- د - فإن القرآن الكريم بمنهجه هذا و وضعه قاعدة للبحث عن الحق في مثل هذه الآيات كي يدل الإنسان و بالأخص المؤمن به على أن يطبق نفس المنهج و أن يقوم هو به عمليا إتباعا للنهج نفسه و هو مسؤول عن إنقاذ و إنجاز المنهج و إجرائه . و لا يجوز له أن يطرح المسؤولية على عاتق من سبقه و لا على عاتق من سيأتي بعده . و كل واحد من الناس و من المؤمنين مسؤول عن نفسه وليس مسؤولا عن غيره كما أن غيره ليس مسؤولا عنه إلا ماحدده الشرع . فكل من له عقل فهو مخاطب بهذه الآية و هو مكلف أن يتبع مافيها من القواعد و طرق البحث للوصول إلى المطالب الحسنة ، حسب ما يقتضيه حاله و فهمه بعقله. وإذا كان لا يقدر على الفهم فعليه أن يسأل أهل الذكر و العلم و يجب على المؤمن بالقرآن أن يفهمه و أن يفهم منهجه ثم أن يتعلم كيف يطبق ذلك المنهج و ليس عليه غير ذلك . و ينبغي أن لا يخاف من الخطأ لأنه إذا أخطأ هو فسيصيب الآخرون و يجب عليه أن يكون على علم و معرفة بما عمله الآخرون حسب نفس الآية و يصحح خطأه بنفسه . و هذا هو حال المؤمن و أساس روح القرآن ، حيث لا يتجلد و لا يتصلب لخطأه و يصبح في كل وقت و في كل عمل وفعل له باحثا عن الحق . و هو منهج القرآن دوما و دائما .

و أخيرا فإن القرآن عندما خاطب الناس بصورة مطلقة دون قيد أو شرط ، فإنه قد أظهر الإعتماد و الثقة على فهمهم و أعطى المسؤولية الكاملة لهم . و نرى أنفسنا نحن المثقفين لا نعتمد على غيرنا إلا أن نأتي بشروط ثم نستند إليها حتى نضطر الآخرين إلى ما نرغب في الوصول إليه من النتائج التي نحبها بما عندنا من الأفكار المسبقة . و القرآن كذلك يرغب في أن يوصل المخاطبين إلى الحق المنشود . و لكن يعطيهم المسؤولية بصورة كاملة حتى يشعروا بثقلها و يعملوا بموجبها وعندما نشترط لهم شروطا يرون أن المسؤولية قد وضعت عنهم و خففت . فإن هذا بسبب الكسل الذهني و البدني و عدم الشعور بالمسؤولية . و الله تعالى خلق الإنسان و هو يعلم كيف يخاطبه و يعامله . و ينبغي على المرشدين إلى سبيله أن يتبعوا منهج القرآن و أن يتركوا الناس أحرارا أمام القرآن مجابهة وجها لوجه و هو يرشدهم .

فنرجع إلى الآية الكريمة و ننظر فيها مرة ثانية . يقول الله عز من قائل :

« فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولو الألبـــاب » .

يا محمد ! بشر عبادي الذين يستمعون و يصغون إلى الأقوال و الآراء و الأعمال ثم يفكـــرون و ينظرون إلى ما هو أحسن و أنفع لهم فيرجحونه و يعملون به دون إنحياز للاتباع إلى فكرة سابقة ثابتة لرأي شخص معين . و هم الذين قد هداهم الله إلى الحق و أصبحوا من أهل الحق و من أرباب العقول الصافية و الأذهان الزكية حيث لم يتأثروا بمن سبقهم و بما أحاطهم في البيئة من التقاليـــد و الأعراف و الأساتذة .

و نحن المسلمين تركنا هذا المنهج منذ عصر الثالث الهجري . و لكن ظهر ضرر هجرنا لهذا المنهج العلمي القرآني في العصور الأخيرة .و في أيامنا هذه كان ينبغي على أولي الأمر و أولي العلـم أن يتبعوه ، عندما رأوا الآخرين قد تقدموا في العلوم و الصناعة ، و بدأوا يسيطرون و يتحكمون في البلاد الإسلامية دون هوادة و تؤدة .

و كما رأينا في هذه الآية و هناك آيات أخرى تدل على المنهج و كيفية إستعمال المنهج ، و لكـن المسلمين يقرأون و في الحقيقة يتلفظون كلمات القرآن الكريم دون تدبر و تفكر و لا يقفـــون على معاني الآيـــات :

النتائج المستفادة

1 - فآية « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

تشمل الميزان و المعيار لنشدان الحق . و لا حاجة للبحث عن المعيار و الميزان و هما في مضمون الآية . لأن الإنسان الذي يرى أشياء و أقولا مختلفة و له مسكة من العقل يستطيع أن يرى الفـــــرق بينها و يميز بين ماهو حسن ، و ما هو ليس بحسن و ما هو أحسن من بينها . و إلى ذلك أشار اللـه تعالى : و أولئك هم أولو الألباب . و أما الإنسان الذي ليس أهلا للتمييز فليس مخاطبا و لا يدخل في تبشيرها . و القرآن يطلب من الإنسان التفكير الحر غير المقيد و يعتمد عليه لأنه إذا حققه كفاه وصولا إلى الحـق .

2 - فإن القرآن الكريم ليس كتاب دين بالمعنى المتعارف عليه ، و هو كتاب يخاطب الإنسان العاقل و المفكر بأعلى مستوى علمي و عقلي و يقدم له المبادئ و المعايير بالإضافة إلى ماعنده من المبادئ العقلية الفطرية . لأن أصحاب العقول و أولي الألباب و الرأي هم الذين يدبرون الدولة و المجتمـع ، و هم يحتاجون إلى مبادئ القرآن و أحكامه بمراتب ثلاث لتصرفاتهم الشخصية و لعلاقاتهــــم الإجتماعية و لتدبيرهم شؤون الدولة ليكون حكمهم أعدل و أقوم حتى يقوم نظام العالم و يـــدوم و يقدم لهم القرآن الكريم إرشادات و توجيهات عامة و هم يطبقونها على الجزئيات و الأمور المتغيـرة

و الشروط و الأحوال المتطورة .

3 - أتى القرآن الكريم إلى البشرية بمبدأين أو منهجين :

الأول : جاء يؤيد المبادئ العقلية و مبادئ و قوانين العلوم المتحصلة عندهم بكسبهم و يعطيها قيمة علمية و يتخذها أسسا للإستناد إليها في الإرشاد و الهداية . و بذلك قد اعتبر القرآن الكريم المبادئ العقلية و العلمية مصدرا للمعرفة الصحيحة ، إذا اتبعها الإنسان بصورة سليمة دون تأثر بالأفكار المتقلدة المسبقة و البيئة و غيرها « **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** »

الثاني : إعطاء الإختيار و الحرية للإنتخابات و الإنتقاء من بين الأشياء المجربة و المدروسة بشرط أن يكون أكثر نفعا و أحسن جمالا و أقوم رشدا .

4 - مدح و أستحسن القرآن الكريم من يتبع المنهج العلمي المعترف به من قبل العلماء المحققين المحايدين إتباعا حسنا و كاملا : و هو جمع المعلومات بصورة وافية ، ثم ترتيبها و تنظيمها و مقارنتها بعضها ببعض ثم إيجاد ما هو أقوم و أحسن من بينها إستنادا إلى ما عند الإنسان من المبادئ العقلية و العلمية و الأخلاقية دون ميل أو تحيزإلى مذهب متبع أو أيديولوجية معينة ثم إتباع الأحسن و إنفاذه فعلا .

5 - فينبغي على الإنسان أن يأخذ بنظر الإعتبار أنه لا يجوز له أن يستعمل و يستخدم ، في اختياره ما هو الأحسن و الأقوم من بين الأشياء ، و المعايير ، و الموازين ، السابقة المتوسمة بسمة التحيز والتحزب. وعلى الإنسان أن يختبرها و يفحصها إتباعا لمنطوق الآية :«الذين يستمعون...» إلخ . و هو من أصعب الأمور و أدقها . و من دون ذلك يصعب على الإنسان أن يأمن على نفسه من الوقوع في الخطأ . و إذا كانت المعايير و الموازين غير مفحوصة لا يمكن للإنسان أن يصل إلى نتيجة صحيحة و لا تنتج نتيجة علمية محايدة . و الآية المذكورة تعطي بمنطوقها و مفهومها فحص المعايير أيضا .

6 - فإن الآيات : هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب (1) « **فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولو الألباب** » (2) ، و أمثالهما تعطى

---

1 - الزمر 9

2 - الزمر 18

للإنسان الحرية الكاملة لاستعمال مصادر العلم و الحصول على معرفة صحيحة و تحمله المسؤولية المطلقة . و أنه إذا اتبع هذا المنهج فيمده القرآن الكريم و يعتبره من أصحاب العقول و الفهوم الذين يستحقون من الجانب الإلهي المدح و التبشير و يعتبرون من أولي الأمر هداة للناس . ولكن إذا انحرف الإنسان تحت أي تأثير كان ، لا يدخل في زمرة المبشرين بالهداية و العقل و الفهم و لو صلى و صام .

7 - المشكلة الكبرى التي وقع فيها المسلمون سابقا و حاضرا في أيامنا هذه في العالم الإسلامي أجمع ، و بدأ العلماء و الفقهاء يشيرون إليها و يندون بها ، هي الرجوع إلى السنة دون فهم و فقه واقفا على معاني الألفاظ اللغوية من الشباب و المثقفين الذين لم يختصوا في الفقه و أصوله ، هذا من ناحية فقه السنة و من ناحية السند لا يميزون بين صحيح السنة و ضعيفها و معلولها و موضوعها و الإطلاع على اختلاف الآراء فيها ، و من ناحية ثالثة يتجرأون على الفتوى دون شعور بالمسؤولية العلمية و لا الدينية . و عندهم شعور و حساسية طفلاتية يبدعون و يضللون و حتى يتهمون الذين وقفوا حياتهم للفقه و أصوله و العلوم الدينية الأخرى ، و من ناحية رابعة ، يتخذون آية واحدة و حديثا واحدا فقط و يرفعون راية النجاة و يصيحون من يحب الخلاص فليلتحق بنا و هم غير فاهمين الآية و الحديث و لم يدركوا مغزاهما و غايتهما بالمقارنة مع آيات و أحاديث أخرى و غير مطلعين على آراء العلماء فيها و هم يقومون بالدعوة إلى الدين و هم أحوج ما يكونون إليها لخروجهم عن الحكمة المطلوبة فيها .

8 - وقد تبين مما سبق من قولنا و بياننا ، أن الرجوع إلى القرآن و السنة هو الإجتهاد ، والإجتهاد إستنباط المعاني و الأحكام من النص الشرعي و هو وظيفة العلماء ، و الفقهاء ليس من هو متصف بالجهل المركب ، و هذا لا يصلح له إلا من حصل على حظ وافر و كاف من العلوم المذكورة و تمهر فيها . و أما حفظ بعض المتون المتعلقة بتلك العلوم لا يؤهل الإنسان للإستنباط و الإستخراج . و على هذا ينبغي أن يكون علماء و فقهاء في الوقت الحاضر و في كل زمان فهم الذين يستنبطون الأحكام و يفقهون النصوص الشرعية حسب الظروف و الشروط الحديثة للحياة في كل مجالاتها مستعينين بالعلوم الحديثة المتعلقة بموضوع المادة و مستنيرين بالفقهاء المحققين السابقين و هذا لا يمنع الناس الآخرين من قراءة القرآن و السنة لأنفسهم و هو واجب على كل القراء أو إستماعا . ولكن لا يجوز لأي واحد أن يفتي و يدعو إلى الدين إذا لم يكن مختصا بالموضوع مهما بلغ من الدرجة العلمية العالية في اختصاص آخر . و الناس الذين يبدون رأيا في غير اختصاصاتهم يعتبرون من الناس البسطاء الذين يعرفون الكتابة و القراءة فقط ، بل دون ذلك لأنهم لا يقدرون قدرهم و وضعهم وحدهم تجاه الله تعالى و عندما طلب الله تعالى من الناس أن

يسألوا أهل الذكر ، قصد أهل الإختصاص ، بشروط وضوابط معينة .

الحاصل

و في المنهج القرآني تبّينا شيئيـــــن :

الأول : الغاية المنشودة و هي الوصول إلى الحق و ما هو أقوم و أحسن . و يجب على كــل أن يتخصص في فرع من فروع المعرفة و أن يسعى فيه وراء الغاية المذكورة ليصل إلى الحـــق .

الثاني : إراءة الطريق و كيفية السير فيها .

و بذلك يريد القرآن من كل شخص أن يفحص كيفية استعمال المعايير و الموازين للأحكـــــام و المبادئ من جديد . فلا يسمح القرآن للإنسان بأن يلقى الوازرة على الأخرين و يسبب إتكـال بعضهم على بعض و اثقالهم . فإنه يريد من الإنسان فعالية مستمرة و حركة دائمة متجددة ، مثل نحل العسل كي لا يكسل و لا يتوانى . و هذا هو هدف الفلسفة العملية للقرآن الكريـــم و حيويته الحركية دوما . و إذا فرغ الإنسان من عمل فعليه أن يشرع في آخر دون هــــــوادة و هوان رغبة في وجه الله تبارك و تعالى .

« فإذا فرغت فانصب و إلى ربك فارغب »

صدق الله العظيم .